

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

الموسم الجامعي: 2023/2022
المستوى: ثانية فلسفة
الأستاذ: عبد الله زين

كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية
قسم العلوم الاجتماعية
المقياس: فلسفة التاريخ

المحاضرة الرابعة: الأبطال والتاريخ (دور الأبطال في صناعة الحدث التاريخي- فيكو -)

تمهيد:

بعد عصور الظلام التي سادت أوروبا في العصور الوسطى، وهيمنة النظرية المعرفية المسيحية على أشكال التفسير العلمي والفلسفي، فإنه مع بداية القرن الخامس عشر، بدأت تباشير نهضة حضارية تلوح في الأفق، تمثلت إحدى ركائزها: في التطور العلمي والمعرفي، خاصة مع روح الفلسفة العقلانية لدى "رينيه ديكارت"، والمنهج العلمي التجريبي مع "فرنسيس بيكون"، و"دفيد هيوم"، والرياضيات والفيزياء مع "ليبنز" و"نيوتن" و"غاليليو".

قلبت هذه المعارف العلمية الجديدة الرؤية المسيحية التي ظلت سائدة لقرون، وبدأت تتشكل معالم رؤية جديدة إلى العالم، خاصة مع التطورات التي أدخلتها حركة الإصلاح الديني على علم اللاهوت المسيحي، على يد كل من "مارتن لوثر" و"كالفن"، وبداية تقويض العلم للعقائد الراسخة للمسيحية حول الطبيعة والإنسان.

إن حركة النهضة الأوروبية التي انطلقت من إيطاليا منذ القرن الرابع عشر الميلادي، واستمرت حول قرنين من الزمن، حررت الإنسان الأوروبي من سلطان الكنيسة ورجال الدين، ومن الفلسفة المدرسية التي سادت في العصور الوسطى، فكيف انعكس كل ذلك على تفسير التاريخ خلال هذه الفترة؟ وعلى يد من ظهر تفسير للتاريخ يتجاوز التفسير اللاهوتي عند أوغسطين؟ وما طبيعة هذا التفسير الجديد للتاريخ؟

في هذا الجو الثقافي المشحون، والروح الفلسفية الجديدة التي اجتاحت أوروبا، بدأت على مستوى التاريخ وفلسفته تتبلور فكرة تخليصه من الرؤية اللاهوتية المسيحية القائمة على فكرة الفداء. وفق هذه الرؤية الجديدة للتاريخ، يعتبر "جيوفاني باتيستا فيكو" (Vico Giambattista) (1668-1744 م) الفيلسوف الإيطالي، أول من أسس علم التاريخ الوضعي، في الحضارة الغربية الحديثة، على الرغم من أنه لم يتخلص كلية من البعد اللاهوتي في دراسة الوقائع التاريخية، إلا أنه وضع منهاجاً لمعالجة الوقائع التاريخية من زاوية عقلية محضة، بدلاً من الاكتفاء بالتاريخ الذي تحويه النصوص المسيحية المقدسة وشروحها.

إن شهرة "فيكو" العلمية، قد قامت على ما عرضه في كتابه "العلم الجديد"، من آراء حول الاجتماع الإنساني وفلسفة التاريخ ومناهج البحث العلمي في التاريخ.

1-لمحة عن حياة فيكو ومؤلفاته:

جيوفاني باتيستا فيكو، فيلسوف إيطالي ولد بنابولي سنة 1668م، تولى تعليم نفسه بنفسه، فتعمق في الأدب والفلسفة والحقوق، دون اتباع برنامج أكاديمي ثابت، درس في جامعة نابولي وعمل بنشاط، لكنه لم يستطع تجنب الفقر والمرض، فأجبر على إعطاء دروس خاصة والقيام بأشغال مضيئة، توفي سنة 1744 م.

ترك " فيكو " عدة مؤلفات، منها: انفعالات يانس، الكتاب الميتافيزيقي، القانون الكلي، في الحب البطولي، في توازن الجسم الحي، العلم الجديد في الطبيعة المشتركة بين الأمم (1725 م) .
2-فلسفته العامة:

تتلخص فلسفة " فيكو " في نقطتين بارزتين هما:
* يرى " فيكو " أنه مادام العالم المدني من صنع البشر، فيجب القدرة على إيجاد المبادئ له، في التعليقات الخاصة بعقلنا الإنساني ذاته .
* هذا التصريح الذي يركز عليه " العلم الجديد " يفتح للفلسفة عالم التاريخ، الذي ترك كثيرا تحت رحمة علماء الآثار، وبذلك كان " فيكو " من أبرز الداعين للتفلسف في التاريخ .
3-فلسفة التاريخ عند فيكو:

بسط " فيكو " نظريته في فلسفة التاريخ، من خلال كتابه " العلم الجديد في الطبيعة المشتركة بين الأمم "، ويعتبر بعض المفكرين أن " فيكو " هو أول من أرسى قواعد فلسفة التاريخ في العصر الحديث، بل يصفه " جول ميشليه " بأبي فلسفة التاريخ . إن دوره في فلسفة التاريخ شبيه بدور " فرنسيس بيكون " في العلم التجريبي، وبدور " أوجيست كونت " في علم الاجتماع . تتضح رؤية " فيكو " في فلسفة التاريخ في النقاط الآتية :
أ-فيكو وتأسيس علم التاريخ الوضعي:

يعتبر " فيكو " مؤسس علم التاريخ الوضعي في الحضارة الغربية الحديثة، من خلال كتابه " العلم الجديد " . قدّم " فيكو " قواعد منهجية لدراسة التاريخ، وقد كانت لها أهمية بالغة في نشأة علم التاريخ عنده، حتى أن " ألبان جريجوري ويدجري " يقول عنه: « أن فيكو قد قام فعلا بتمهيد الطريق إلى ذلك، بإدخاله بعض طرق العمل، وباقتراحه بعض المبادئ العامة، فهو إذا يبرز أكثر كأحد مؤسسي علم التاريخ » .

كما يتجلى اسهام " فيكو " في تأسيس علم التاريخ في تأكيده على ضرورة التمييز بين المناهج التي تستخدم في العلوم الإنسانية والمناهج التي تستخدم في العلوم الطبيعية، ففي التاريخ، الموضوع هو الإنسان، حيث يدرس المؤرخ تعبيرات الإرادة الإنسانية، ومن ثم يستطيع المؤرخ من خلال إنسانيته أن يستوعب أفعال الإنسان وأن يفهمها ويتألف معها .

لقد سعى " فيكو " لبناء منهج علمي في التاريخ، يسهم في دراسة الأحداث الماضية دراسة موضوعية، كما رأى " فيكو " ضرورة أن تسهم العديد من العلوم في بناء هذا المنهج، من بينها : علوم اللغة، كما رأى " فيكو " أن التاريخ من صنع الإنسان، وبذلك بدأ يخلص التاريخ من التفسير اللاهوتي المسيحي .
ب-فيكو ونقد أوهام المؤرخين:

بنفس الطريقة التي تناول بها " فرنسيس بيكون " في كتابه " الأورغانون الجديد " الأوهام التي يقع فيها الباحثون في مجال العلم التجريبي، صاغ "فيكو" مجموعة من الافتراضات التي قع فيها المؤرخون عند إجراء أبحاثهم ودراساتهم، سماها " بالأوهام " التي تحجب عنهم الرؤية الموضوعية للأحداث التاريخية . هذه الأوهام عبارة عن مجموعة مسلّمات يسلم بها العقل الإنساني دون تمحيص ونقد، وتتمثل هذه الأوهام فيما يلي:

- وهم التهويل والتفخيم: ويعني تمجيد المؤرخ لماضي أمته، والتركيز على جوانب القوة والثراء فيها.
- غرور الأمم: محابة الأمم لنفسها عند الحديث عن ماضيها .
- وهم الثقافة الأكاديمية: اعتقاد المؤرخ بأن من يؤرخ لهم، هم أناس من طراز العلماء .
- وهم التعاقب العلمي للأمم: اعتقاد المؤرخ بأخذ الأمم عن بعضها ضرورة، إذا تشابهت .
- وهم الاقتراب: اعتقاد المؤرخ بأن الأجيال السابقة أكثر علما منا بالنسبة إلى العصور قريبة العهد من عصرهم، يرجع هذا الوهم إلى تصور التاريخ كذاكرة الإنسان، كلما كان موضوع التذكر أقرب عهدا، كان أكثر ثباتا ووضوحا في الذاكرة .

ج-فيكو والتأسيس لفلسفة التاريخ:

لقد دعا " فيكو " إلى ضرورة أن يستعين المؤرخون بفقهاء اللغة والفلسفة في التأسيس للمعرفة التاريخية، وبالتالي يعدّ أول من دعا إلى النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية في العصر الحديث، وهذه النظرة الفلسفية للتاريخ هي جوهر فلسفة التاريخ .

يرى " فيكو " أن عملية التفسير التاريخي تتطلب تصافراً ثلاثة مباحث معرفية هي: اللغة والفلسفة وعلم التاريخ، فمن الضروري على المؤرخ أن يتقن لغات المجتمعات التي يؤرخ لها لفهم رواياتها التاريخية، كما يفيد ذلك في عملية المقارنة بين المصادر التاريخية . أما الفلسفة فتزوّد المؤرخ بمناهجها التأمليّة العقلية، كيفية صنع الإنسان للتاريخ .

لذلك على المؤرخين- إذا أرادوا الوصول إلى الحقيقة التاريخية - أن يستعينوا بهذه المباحث الثلاثة مجتمعة، ليفسروا مسار التاريخ الإنساني .

قدّم " فيكو " رؤية تفسيرية فلسفية للتاريخ العالمي، تتمحور حول فكرة التعاقب الدوري للتاريخ؛ أي وقوع التاريخ بين نقطة الميلاد الحضاري ونقطة أفوله، نظراً لتشابه خصائص التاريخ رغم الاختلافات الجزئية بين الأمم .

يمكن إيجاز تبرير " فيكو " لنظرية التعاقب الدوري في نقاط هي:

-هناك تشابه بين العصور التاريخية (تشابه فترة هوميروس في التاريخ اليوناني، مع العصور الوسطى الأوروبية، من حيث: الملامح، وعصر البطولة، وحيث الحكم ذو الطابع الأرستقراطي، كما يغلب على الأدب طابع الشعر الغنائي، وعلم الأخلاق طابع الولاء) .

-إن كل فترة تاريخية تتبع أخرى على الخط نفسه، فترات البطولة تعقبها فترات يسود فيها الفكر على الخيال والنثر على الشعر، والصناعة على الزراعة، وأخلاق السلم على أخلاق الحرب، وهذه يتبعها تدهور إلى البربرية .

-إن الإنسانية لا تتقدم خلال أدوار التاريخ في خط مستقيم، كما أن التعاقب الدوري لا يعني أنها تترد إلى البداية نفسها، بل أن مسارها في خط يوحى كما لو كانت تدور حول جبل لتصل إلى القمة، كل دورة تعلق التي سبقتها، ومن ثم ما يبدو أنه تكرر ليس إلا موقفاً أكثر ارتفاعاً تستطيع الإنسانية أن ترى آفاقاً أكثر اتساعاً .

-يرى " فيكو " أن تاريخ كل أمة محكوم بتعاقب جملة من المراحل أو الأطوار، وعليه قسم "فيكو" التاريخ إلى ثلاث مراحل هي: مرحلة الألوهية، مرحلة البطولة، المرحلة البشرية أو البربرية .

د-فيكو ومراحل تطور التاريخ الإنساني:

لقد سعى " فيكو " من خلال دراسته لتاريخ الحضارات القديمة (المصرية، اليونانية، الرومانية)، إلى صياغة قانون يحكم تطور التاريخ الإنساني، وقد توصل إلى أن الحضارات تمر بثلاث مراحل هي:

-النشأة: من الهمجية إلى الأديان .

-التطور: من الأديان إلى حياة اجتماعية منظمة .

-التدهور والسقوط: من حياة اجتماعية منظمة إلى السقوط .

استقى " فيكو " هذه الدورة التاريخية التي تمر بها كل الأمم والحضارات، من التقسيم الذي وضعه المصريون القدماء، واعتبر هذا التقسيم مسلماً لا جدال فيها، وتتمثل هذه المراحل فيما يلي:

*المرحلة اللاهوتية:

تتميز هذه المرحلة بسيطرة التفكير اللاهوتي، في كل عمليات التفسير والتعليل، وبتحكم رجال الدين في النظام السياسي؛ فهم من يديرون شؤون الدولة، ويكون الحكم استبدادياً بيد الكهنة الذين يمثلون رجال الدين بمقتضى قوانين إلهية يتلقونها عن طريق التنبؤات والتكهنات .

*المرحلة البطولية:

تتميز هذه المرحلة بظهور أبطال يجمعون من الخوارق العظام، مما يجعل الناس يصفونهم بأنصاف الآلهة، يؤدون أدوارا بطولية كبيرة خاصة في الحروب والغزوات، ويسهمون في بناء الدولة وتقوية شوكتها، رغم استبدادهم بالحكم، وينسب التقدم في هذا العصر إلى أفراد عظام من المشرّعين والحكام والفلاسفة، أمثال: أفلاطون و روميلوس وغيرهم .

*المرحلة البشرية:

تتميز هذه المرحلة بسيادة القانون داخل الدولة، وبظهور أنظمة شبيهة بالنظم الديمقراطية، وتكون هناك مساواة في الحقوق أمام القانون، بحيث يحصل كل إنسان على حقوقه الطبيعية المشروعة في ظل حكومات ديمقراطية شعبية .

على ضوء المراحل السالفة الذكر، ميّز " فيكو " بين ثلاث حكومات أو أنظمة تحكم المجتمعات هي:

-الحكومة التيقراطية: حكم الكهنة ورجال الدين، وتستند على نظرية دينية (وثنية أو سماوية) .

-الحكومة الأرستقراطية: حكم النخبة من الأفراد المبدعين .

-الحكومة الديمقراطية: وفيه يحكم الشعب نفسه بنفسه، عبر أدوات التعبير أو المؤسسات (الجمهورية أو الملكية المقيدة) .

بحسب رأي " فيكو " مرّت كل الأمم بهذه المراحل الثلاث، ثم سقطت في البربرية والتوحش؛ ففي المرحلة الأخيرة، لما تسود الديمقراطية يتطرّف أفراد المجتمع في المطالبة بحقوقهم وتزداد أشكال الصراع الداخلي بين أفراد المجتمع، فتتفكك أواصر المواطنة والقانون، ويسود الانحلال في الأمة، وبالتالي تسود البربرية في المجتمع، ومعها تنهار الدولة ويعيد التاريخ دورته مرة أخرى .

*نقد وتقييم لنظرية فيكو في فلسفة التاريخ:

إن إسهام " فيكو " في فلسفة التاريخ واضح للعيان؛ فهو أول من قال بأن الإنسان هو صانع التاريخ (في أوروبا)، وهو أول من تجاوز فكرة التقسيم اللاهوتي المسيحي للتاريخ في الحضارة الغربية، رغم أنه لم يفصح عن آرائه بشكل مباشر في وجه رجال الدين والكنيسة؛ بحيث تظهر بعض أفكاره منسجمة مع تعاليم المسيحية وأفكار رجال الدين .